غزوة خيبر

وأقام رسول الله ﷺ بعد رجوعه من الحديبية ذا الحجة وبعض المحرم وخرج في بقية منه غازياً إلى خيبر، ولم يبق من السنة السادسة من الهجرة إلا شهر وأيام، واستخلف على المدينة نميلة بن عبد الله الليثي وذكر موسى بن عقبة[١]، قال: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة منصرفه من الحديبية مكث عشرين يوماً أو قريباً منها ثم خرج غازياً إلى خيبر، وكان الله عز وجل وعده إياها وهو بالحديبية.

قال أبو عمر: قال الله عز وجل في أهل الحديبية: ﴿لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً (١٨) ومغانم كثيرة يأخذونها وكان الله عزيزاً حكيماً﴾ [الفتح: ١٨]. فلم يختلف العلماء في أنها البيعة بالحديبية. قال ابن قتيبة وقتادة وعكرمة وغيرهم: كانت الشجرة سمرة كانت بالحديبية. وعلم ما في قلوبهم من الرضا بأمر البيعة على أن لا يفروا واطمأنت بذلك نفوسهم فأثابهم فتحاً قريباً: خيبر، ووعدهم المغانم فيها مغانم كثيرة يأخذونها. وقد روي عن ابن عباس ومجاهد في قوله: ﴿وعدكم الله مغانم كثيرة﴾ [الفتح: ٢٠] أنها المغانم التي تكون إلى يوم القيامة[٢]. وقالوا في قوله: ﴿وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها﴾ [الفتح: ٢١]: فارس والروم وما افتتحوا إلى اليوم، وقال عبد الرحمن بن أبي ليلي. قال: وقوله: ﴿فتحاً قريباً﴾ [الفتح: ٢٧]: خيبر.

رجع الخبر إلى ابن إسحاق[٣]، قال:

فلما خرج رسول الله ﷺ إلى خيبر دفع رايته، وكانت بيضاء، إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وأخذ طريق الصهباء[٤] إلى وادي الرجيع، فنزل بين خيبر وغطفان لئلا يمدوهم، لأنه بلغه أن غطفان تريد إمداد يهود خيبر. ولما خرجوا لإمدادهم اختلفت كلمتهم. وأسمعهم الله عز وجل حساً من ورائهم وهدّا راعهم وأفزعهم، فانصرفوا إلى

---

(١) التمهيد للمصنف (٦ / ٤٤٧)، وعون المعبود (٨ / ١٧٧)، وعيون الأثر (٢ / ١٨١).

(٢) رواه القرطبي في تفسيره (١٦ / ٢٣٦).

(٣) السيرة النبوية لابن هشام (٤ / ٢٩٧).

(٤) الصهباء: موضع في الطريق من المدينة إلى خيبر، وهي على بعد ثمانية برد منها شمالا.

ديارهم، فأقاموا بهـا. وأقبل رسول الله ﷺ حتى أشرف على خيبر مع الفـجر، وعمالهم غادون بمساحيهم ومكاتلهم[١]. فلما رأوا رسول الله ﷺ والجيش نادوا: محمد والخميس[٢] معه. وأدبروا هراباً، فقال رسول الله ﷺ : «**الله أكبر خربت خيـبر إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صـباح المنذرين**». وتحصنت يهـود في حصونهم وكـانت حصوناً كثـيرة، فكان أول حصن افتـتحوه حصناً يسمى ناعـماً وعنده قتل محمود بن مـسلمة أخو محمـد بن مسلمة ألقيت عليـه رحى فشدخـته، رحمه اللـه، ثم حصنا يدعى القمـوص وهو حصن بني أبي الحقيق، ومـن سبايا ذلك الحصن كـانت صفية بنت حـيي بن أخطب وكانت تحت كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق أصابها رسول الله ﷺ وبنتي عم لها، فـوهب صفية لدحية بن خليفة الكلبي ثم ابتاعها منه بسبعة أرؤس، ثم أردفها خلفه، وألقى عليها رداءه، فعلم أصحابه أنه اصطفاها لنفسه، وجعلها عند أم سليم حتى اعتدت وأسلمت، ثم أعتقها وتزوجها، وجعل عتقهـا صداقها. وهذه مسـألة اختلف الفقهاء فيـها فمنهم من جعل ذلك خصوصـاً له كما خص بالموهوبة، ومنهم من جعل ذلك سنة لمن شاء من أمته.

ثم فتح حصن الصـعب بن معاذ ولم يكن في حصون خـيبر أكثر طعـاماً وودكاً منه. ووقف إلى بعض حـصونهم فامـتنع عليهم فـتحه ولقـوا فيـه شدة، فأعطى رايـته أبا بكر الصديق فنهض بها وقاتل واجتهد ولم يفتح عليه، ثم أعطى الراية عمر فقاتل ثم رجع ولم يفتح له وقـد جهد. فـحينئذ قـال رسول الله ﷺ : «**لأعطين الراية غداً رجـلاً يحب الله ورسولـه ويحبه الـله ورسوله ليس بفـرار يفتح الله عـز وجل على يديه**». فلما أصـبح دعا علياً، وهو أرمـد، فتـفل في عينيـه، ثم قال: «**خذ الرايـة فامض بها حـتى يفتح اللـه بها عليك**». ذكر هذا الخبر ابن إسحاق[٣]، وقال: حدثني بريدة بن سفـيان بن فروة عن أبيه سفيان عن سلمة بن الأكوع، وذكر من حديث أبي رافع مولى النبي ﷺ ، قال: خرجنا مع علي حين بعثـه رسول الله ﷺ برايته إلى حـصن من حصون خـيبر، فلمـا دنا من الحصن خرج إليه أهله وقاتلهم، فضربه رجل من يهود، فألقى ترسه من يده، فتناول علي بابا كان عند الحصن فـترس به عن نفسـه، فلم يزل في يده، وهو يقاتل، حتى فـتح الله عليه، ثم ألقاه من يده، فلقد رأيتني في نفـر معي سيفه وأنا ثامنهم نجتـهد على أن نقلب ذلك الباب فما نقلبه.

---

(١) المساحي: الفئوس، المكاتل: الزنابيل.

(٢) قيل: سمى الجيش خميسا؛ لأنه خمسة أقسام: المقدمة والساقة، والميسرة، والميمنة، والقلب.

(٣) السيرة النبوية لابن هشام (٤ / ٣٠٥).

وذكر ابن إسحاق[١] من رواية يونس بن بكير وزياد وإبراهيم بن سعد والأموي عنه عن عبد الله بن سهل، قال أخو بني حارثة، عن جابر بن عبد الله. وبعضهم يرويه عن ابن إسحاق عن عبد الله بن سهل، عن جابر، ولم يشهد جابر خيبر:

أن محمد بن مسلمة هو الذي قتل مرحبا اليهودي بخيبر. قال ابن إسحاق[٢]: فذكر أن رسول الله ﷺ قال: «**من لهذا**» يعني مرحبا اليهودي، فقال محمد بن مسلمة: أنا له يا رسول الله أطلب الثأر، قتل أخي بالأمس. قال: «**فقم إليه**». فنهض إليه محمد بن مسلمة، فتقاتلا، وكانا يستتران بشجرة فجعل أحدهم يلوذ بها من صاحبه، كلما لاذ بها منه اقتطع بسيفه ما دونه منها حتى ذهبت أغصانها وبرز كل واحد منهما لصاحبه، وحمل مرحب على محمد بن مسلمة فضربه، فاتقاه بالدرقة[٣] فوقع سيفه فيها فعضت به وأمسكته وضربه محمد، فقتله. ثم انصرف. ثم برز أخو مرحب واسمه ياسر، فدعا إلى البراز، فخرج إليه الزبير. هذا ما ذكره ابن إسحاق في قتل مرحب اليهودي بخيبر. وخالفه غيره، فقال: بل قتله علي بن أبي طالب، وهو الصحيح عندنا.

حدثنا عبد الله بن محمد، قال: حدثنا محمد بن بكر، قال: حدثنا أبو داود، قال: حدثنا هارون بن عبد الله، قال: حدثنا روح بن عبادة، قال: حدثنا عوف، عن ميمون أبي عبد الله، عن عَبد الله بن أبي بريدة، عن أبيه أبي بريدة الأسلمي: أن النبي ﷺ قال لما نزل بحصن خيبر: «**لأعطين اللواء غداً رجلاً يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله**»، فلما كان من الغد تطاول لها أبو بكر وعمر، فدعا علياً، وهو أرمد، فتفل في عينيه، وأعطاه اللواء، ونهض معه الناس، فلقوا أهل خيبر، فإذا مرحب بين أيديهم يرتجز:

قد علمت خيبر أني مرحب ... شاكي السلاح بطلٌ مجرّب

إذا السيوف أقبلت تلهّب ... أطعن أحياناً وحيناً أضرب

فاختلف هو وعلي ضربتين، فضربه علي على رأسه حتى عض السيف بأضراسه، وسمع أهل العسكر صوت ضربته، قال: فما تتام الناس حتى فتحوا لهم[٤].

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٤ / ٣٠٣).

(٢) السيرة النبوية لابن هشام (٤ / ٣٠٣).

(٣) الدرقة: ترس من جلد.

(٤) أخرجه من هذا الطريق أحمد في مسنده (٢٣٠٨١)، والحاكم (٣ / ٤٩٤)، وابن أبي شيبة (٣٦٨٧٩).

حدثنا سعيد بن نصر، قال: حدثنا قاسم بن أصبغ قال: حدثنا محمد بن وضاح قال: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة قال: حدثنا هاشم بن القاسم قال: حدثنا عكرمة بن عمار، قال: حدثني إياس بن سلمة الأكوع، قال: أخبرني أبي، قال[١]: لما خرج عمي عامر بن سنان إلى خيبر بارز يوماً مرحبا اليهودي، فقال مرحب:

قد علمت خيبر أني مرحب شاكي السلاح بطلٌ مجرّب
إذا الحروب أقبلت تلهَّبُ أطعن أحياناً وحينا أضرب

وقال عمي:

قد علمت خيبر أني عامر شاكي السلاح بطلٌ مغاور

فاختلفا ضربتين، فوقع سيف مرحب في ترس عامر، ورجع سيف عامر على ساقه فقطع أكحله، فكانت فيها نفسه، قال سلمة: إن رسول الله ﷺ أرسلني إلى علي بن أبي طالب، وقال: «**لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله**» قال: فجئت به أقوده أرمد، فبصق النبي ﷺ في عينيه، ثم أعطاه الراية، فخرج مرحب يخطر بسيفه، وقال:

قد علمت خيبر أني مرحب شاكى السلاح بطلٌ مجرّب
إذا الحروب أقبلت تلهّب

وقال علي رضي الله عنه:

أنا الذي سمّتني أميّ حيدره كليث غاباتٍ كريه المنظره
أوفيهم بالصاع كيل السّندره

ففلق رأس مرحب بالسيف، وكان الفتح على يد علي.

قال ابن إسحاق[٢]: وآخر ما افتتح رسول الله ﷺ من حصونهم الوطيح والسُّلالم.

وقال موسى بن عقبة: حاصر رسول الله ﷺ حصون خيبر بضع عشرة ليلة، وكان بعضها صلحاً وأكثرها عنوة، ذكر ذلك عن ابن شهاب. وقال ابن إسحاق: قسم رسول الله أرض خيبر كلها لأنه غلب على جميعها عنوة. وحاصر رسول الله ﷺ أهل خيبر في حصنهم الوطيح حتى إذا أيقنوا بالهلكة سألوه أن يسيرهم وأن يحقن لهم دماءهم،

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٦٥٨٦)، ومسلم (١٨٠٧ / ١٠٢)، وابن حبان (٦٩٣٥).
(٢) السيرة النبوية لابن هشام (٤ / ٣٠٣).

ففعل[١].

مقاسم خيبر وأموالها

وكان رسول الله ﷺ قد حاز الأموال كلها: الشق ونطاة والكُتيبة[٢] وجميع حصونهم إلا ما كان من ذينك الحصنين[٣] فلما سمع بهم أهل فدك[٤] قد صنعوا ما صنعوا بعثوا إلى رسول الله يسألونه أن يسيرهم وأن يحقن لهم دماءهم ويحلوا له الأموال ففعل. وكان فيمن مشى بين رسول الله ﷺ وبينهم في ذلك محيصة بن مسعود أخو بني حارثة. قال: فلما نزل أهل خيبر على ذلك سألوا رسول الله أن يعاملهم في الأموال على النصف، فعاملهم، وقال لهم: «**على أنا إذا شئنا أن نخرجكم أخرجناكم**». فصالحه أهل فدك على مثل ذلك. وكانت خيبر فيئاً بين المسلمين، وكانت فدك خاصة لرسول الله ﷺ؛ لأنهم لم يوجفوا عليها بخيل ولا ركاب.

قال أبو عمر: هذا هو الصحيح في أرض خيبر أنها كانت عنوةً كلها مغلوباً عليها بخلاف فدك وأن رسول الله ﷺ قسم جميع أرضها على الغانمين لها الموجفين بالخيل والركاب، وهم أهل الحديبية. ولم يختلف العلماء في أن أرض خيبر مقسومة، وإنما اختلفوا هل تقسم الأرض إذا غنمت البلاد أو توقف ؟ فقال الكوفيون: الإمام مخير بين قسمتها كما فعل رسول الله ﷺ بأرض خيبر وبين إيقافها كما فعل عمر بسواد العراق، وقال الشافعي: تقسم الأرض كلها كما قسم رسول الله ﷺ خيبر؛ لأن الأرض غنيمة كسائر أموال الكفار، وذهب مالك إلى إيقافها اتباعاً لعمر، لأن الأرض مخصوصة من سائر الغنيمة بما فعل عمر في جماعة من الصحابة: في إيقافها لمن يأتي بعده من المسلمين. وروى مالك عن زيد بن أسلم عن أبيه، قال: سمعت عمر يقول: لولا أن يترك آخر الناس لا شيء لهم ما افتتح المسلمون قرية إلا قسمتها سهماناً كما قسم رسول الله ﷺ خيبر سهماناً[٥]، وهذا يدل على أن أرض خيبر قسمت كلها سهماناً كما قال ابن إسحاق[٦]. وأما قول من قال: إن خيبر كان بعضها صلحاً وبعضها عنوة، فقد وهم وغلط، وإنما

---

(١) عيون الأثر (٢ / ١٨١).

(٢) هذه بعض حصون خيبر.

(٣) الحصنان المشار إليهما هما الوطيح والسلالم.

(٤) فدك: قرية كانت لليهود شمالي خيبر.

(٥) عيون الأثر (٢ / ١٨١)، وابن أبي شيبة (٣٢٩٧٧، ٣٦٨٩٦).

(٦) نصب الراية (٣ / ٤٠٧)، وعون المعبود (٨ / ١٧٧)، وعيون الأثر (٢ / ١٨١).

دخلت عليه الشبهة بالحصنين اللذين أسلمهما أهلهما لحقن دمائهم. فلما لم يكن أهل ذينك الحصنين من الرجال والنساء والذرية مغنومين ظن أن ذلك صلح، ولعمري إنه في الرجال والنساء والذرية لضرب من الصلح، ولكنهم لم يتركوا أرضهم إلا بالحصار والقتال، فكان حكم أرض ذينك الحصنين كحكم سائر أرض خيبر كلها غنيمة مغلوباً عليها عنوة مقسومة بين أهلها. وربما شبه على من قال: إن نصف خيبر صلح ونصفها عنوة بحديث يحيى بن سعيد عن بشير بن يسار أن رسول الله ﷺ قسم خيبر نصفين: نصفاً له، ونصفاً للمسلمين(١). وهذا لو صح لكان معناه بأن النصف له مع سائر من وقع في ذلك النصف معه؛ لأنها قسمت على ستة وثلاثين سهماً، فوقع سهم النبي ﷺ وطائفة معه في ثمانية عشر سهماً منها، ووقع سائر الناس في باقيها، وكلهم ممن شهد الحديبية ثم شهد خيبر. وليست الحصون التي أسلمها أهلها بعد الحصار والقتال صلحاً، ولو كانت صلحاً لملكها أهلها كما يملك أهل الصلح أراضيهم وسائر أموالهم. فالحق في هذا والصواب ما قاله ابن إسحاق دون ما قاله موسى وغيره عن ابن شهاب. والله أعلم.

قال أبو عمر: قسم رسول الله ﷺ خيبر، وأخرج الخمس مما قسم، ولم يقدر أهلها على عمارتها وعملها فأقر اليهود فيها على العمل في النخل والأرض، وقال لهم: «**أقركم ما أقركم الله**». ثم أذن الله له في مرضه الذي مات فيه بإخراجهم، فقال: «**لا يبقين دينان بأرض العرب**»(٢). وقال عليه السلام: «**أخرجوا اليهود والنصارى من أرض الحجاز**»(٣).

---

(١) اعترض ابن سيد الناس على هذه العبارة لابن عبد البر، فإن جابر بن عبد الله الأنصاري كان ممن شهد الحديبية ولم يشهد خيبر، وقسم له الرسول، وأيضا فإنه قسم لأهل السفينتين الذين جاؤوا من الحبشة ممن لم يشهدوا الحديبية وخيبر، كما قسم للدوسيين والأشعريين الذين قدموا عليه في هذا الفتح، عيون الأثر (٢ / ١٧٨).

(٢) رواه ابن إسحاق كما في السيرة النبوية لابن هشام (٤ / ٣٢٥، ٣٢٦).
وأخرجه البخاري (٢٧٠٣)، ومسلم (١٥٥١)، وأبو داود (٣٠٠٧) عن ابن عمر.
ومالك في الموطأ (٨٧٣)، وعبد الرزاق في المصنف (١٩٣٦٨)، والبيهقي في الكبرى (١١٥٢٠) عن عمر بن عبد العزيز مرسلا.

(٣) أخرجه بهذا اللفظ البزار في مسنده (٢٣٠) عن عمر.
وأخرجه البخاري (٣٠٥٣)، ومسلم (١٦٣٧ / ٢٠)، وأبو داود (٣٠٢٩) عن ابن عباس بلفظ: «**أخرجوا المشركين من جزيرة العرب**».
وأخرجه مسلم (١٧٦٧)، وأبو داود (٣٠٣٠)، والترمذي (١٦٠٦، ١٦٠٧) عن عمر بلفظ: «**لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتى لا أدع إلا مسلما**».

ولم يكن بقي يومئذ بها مشرك وثني ولا بأرض اليمن أيضاً إلا أسلم في سنة تسع وسنة عشر. فلما بلغ عمر بن الخطاب ﷺ في خلافته قوله عليه السلام: «**أخرجوا اليهود والنصارى من أرض العرب**» أجلاهم عنها، فأخذ المسلمون سهامهم في خيبر، فتصرفوا فيها تصرف المالكين.

قال ابن إسحاق(١): وكان المتولي للقسمة بخيبر جبار بن صخر الأنصاري من بني سَلِمة، وزيد بن ثابت من بني النجار، كانا حاسبين قاسمين. وكانت قسمة خيبر لأهل الحديبية: من حضر الوقيعة بخيبر ومن لم يحضرها؛ لأن الله أعطاهم ذلك في سفر الحديبية(٢). ولذلك قال موسى بن عقبة(٣): لم يقسم من خيبر شيء إلا لمن شهد الحديبية، وروي ذلك عن جماعة من السلف.

قال ابن إسحاق(٤): فوقع سهم رسول الله ﷺ وعمر وعلي وطلحة وعبد الرحمن بن عوف وعاصم بن عدي وسهام بني سلمة وسهام بني حارثة وبني ساعدة وبني النجار وغفار وأسلم وجهينة واللفيف، كلها وقعت في الشق. ووقع سهم أبي بكر والزبير وسهام بني بياضة وبني الحارث بن الخزرج ومزينة بالنطاة، ولذكر سهامهم وأقسامهم موضع غير هذا. وكان عبيد بن أوس من بني حارثة قد اشترى يومئذ من سهام الناس سهاماً كثيرة، فسمى يومئذ عبيد السهام، واشترى عمر بن الخطاب مائة سهم من سهام المسلمين، فهي صدقته الباقية إلى اليوم.

وأما فدك فلم يوجف عليها بخيل ولا ركاب فكانت كبني النضير خالصة لرسول الله ﷺ.

وفي غزوة خيبر حرم رسول الله ﷺ لحوم الحمر الأهلية(٥)، لم تختلف الآثار في ذلك. واختلفت في حين تحريم المتعة بعد إباحتها. وقد ذكرنا الآثار بذلك في التمهيد(٦).

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٥ / ٣٣٠).

(٢) إشارة إلى قول الله تعالى: ﴿لقد رضي اللهُ عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا (١٨) ومغانم كثيرة يأخذونها وكان اللهُ عزيزا حكيما﴾[الفتح:١٨، ١٩].

(٣) التمهيد للمصنف (٦ / ٤٤٧).

(٤) السيرة النبوية لابن هشام (٤ / ٣٢٣).

(٥) روى حديث النهي عن أكل لحوم الحمر الأهلية يوم خيبر البخاري (٤٢١٥)، ومسلم (٥٦١) عن ابن عمر. والبخاري (٤٢١٦)، ومسلم (١٤٠٧) عن علي، والبخاري (٤٦٩)، ومسلم (١٩٤١) عن جابر بن عبد الله.

(٦) التمهيد للمصنف (١٠ / ٩٤).

وفيها أهدت اليهودية زينب بنت الحارث امرأة سلام بن مشكم إلى رسول الله ﷺ الشاة المصلية وسمت له منها الذراع وكان أحب اللحم إليه ﷺ . فلما تناول الذراع ولاكها لفظها ورمى بها، وقال: «**إن هذا العظم يخبرني أنه مسموم**». ودعا باليهودية فقال: «**ما حملك على هذا**» ؟ فقالت: أردت أن أعلم إن كنت نبياً، وعلمت أن الله إن أراد بقاءك أعلمك[1]. فلم يقتلها رسول الله ﷺ . وأكل من الشاة معه بشر بن البراء بن معرور، فمات من أكلته تلك.

وكان المسلمون يوم خيبر ألفاً وأربعمائة راجل ومائتي فارس.

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٣٣٠٩)، والبخاري (٢٦١٧)، ومسلم (٢١٩٠ / ٤٥)، وأبو داود (٤٥٠٨).

تسمية من استشهد من المسلمين يوم خيبر

ربيعة بن أكثم بن سخبرة الأسدي من بني غنم بن دودان بن أسد بن خزيمة، وثقف بن عمرو، ورفاعة بن مسروح. وكلهم من بني أسد، حلفاء لبني عبد شمس، ومسعود بن ربيعة القاري، من القارة، حليف لبني زهرة.

وعبد الله بن الهُبَيب، ويقال: ابن أهيب الليثي حليف لبني أسد بن عبد العزي بن قصي وابن أختهم.

وبشر بن البراء بن معرور من بني سلمة مات من أكله مع رسول الله ﷺ الشاة المسمومة، وفضيل بن النعمان من بني سلمة أيضاً ومسعود بن سعد بن قيس الأنصاري الزرقي.

ومحمود بن مسلمة بن خالد أخو محمد بن مسلمة من الأوس حليف لبني عبد الأشهل.

وأبو ضياح ثابت بن ثابت بن النعمان من بني عمرو بن عوف من أهل قباء، ومبشر ابن عبد المنذر بن دينار من بني مالك بن عمرو بن عوف، والحارث بن حاطب، وأوس بن قتادة، وعروة بن مرة بن سراقة، وأوس بن الفاكه. وأنيف بن حبيب، وثابت بن واثلة بن طلحة، والأسود الراعي واسمه أسلم وكل هؤلاء من بني عمرو بن عوف.

ومن بني غفار: عمارة بن عقبة بن حارثة أصابه سهم فقتله.

ومن أسلم: عامر بن الأكوع.

قدوم بقية المهاجرين إلى الحبشة

وقدم جعفر بن أبي طالب في جماعة من أرض الحبشة بإثر فتح خيبر، فقال رسول الله ﷺ : «**والله ما أدري أبقدوم جعفر أنا أسر وأفرح أم بفتح خيبر**»[١]، وقدم مع جعفر امرأته أسماء بنت عميس، وابنها عبد الله بن جعفر، وخالد بن سعيد بن العاصي ابن أمية، ومعه امرأته أمينة بنت خلف، وابناهما: سعيد وأمة، وعمرو بن سعيد بن العاصي ابن أمية وكانت امرأته فاطمة بنت صفوان الكنانية قد ماتت بأرض الحبشة، ومعيقيب بن أبي فاطمة حليف آل سعيد بن العاصي، وأبو موسى الأشعري قيل: إنه حليف عتبة بن ربيعة، والأسود بن نوفل بن خويلد بن أسد، وجهم بن قيس بن عبد شرحبيل العبدري، وابناه: عمرو بن جهم، وخزيمة بن جهم، وكانت امرأة جهم بن قيس: أم حرملة بنت عبد الأسود قد هلكت بأرض الحبشة، والحارث بن خالد بن صخر التيمي وكانت امرأته ريطة بنت الحارث بن جبيلة قد هلكت بأرض الحبشة، وعثمان بن ربيعة بن أهبان الجمحي، ومحمية بن جزء الزُّبيدي حليف لبني سهم بن هُصَيْص ولاه رسول الله ﷺ الخمس، ومعمر بن عبد الله بن نضلة العدوي، وأبو حاطب بن عمرو بن عبد شمس العامري، ومالك بن زمعة بن قيس العامري، ومعه امرأته عمرة بنت السعدي بن وقدان، وطائفة معهم.

وقد أتى من مهاجرة الحبشة قبل ذلك بسنتين سائرهم وكان هؤلاء آخر من بقي بها منهم.

---

(١) رواه ابن هشام في السيرة (٥ / ٥)، والحاكم في المستدرك (٢ / ٦٨١) عن جابر.
وأخرجه الطبراني في الكبير (١٤٧٨)، والبزار في مسنده (١٣٢٨)، والبيهقي في الشعب (٨٩٦٨) عن عبد الله بن جعفر عن أبيه.

فتح فدك[١]

ولما اتصل بأهل فدك ما فعل رسول الله بأهل خيبر بعثوا إلى رسول الله ﷺ ليؤمنهم، فأجابهم رسول الله ﷺ إلى ذلك. وكانت فدك مما لم يوجف عليه بخيل ولا ركاب مما أفاء الله عليه بما نصره به من الرعب، فلم يقسمها رسول الله ﷺ ووضعها حيث أمره الله عز وجل.

قال ابن شهاب عن مالك بن أوس بن الحدثان، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: كان لرسول الله ﷺ صفايا بني النضير وخيبر وفدك[٢].

فتح وادي القرى

وانصرف رسول الله ﷺ من خيبر إلى وادي القرى، فافتتحها عنوةً، وقسمها، وأصيب بها غلام له أسود يسمى مدعماً أصابه مهم غرب[٣] فقتله، فقال الناس: هنيئاً له الجنة، فقال النبي عليه السلام: «**كلا والذي نفسي بيده، إن الشملة التي أصابها يوم خيبر من المغانم لم تصبها المقاسم، وإنها لتشتعل عليه الآن ناراً**»[٤].

---

(١) انظر في فتح فدك السيرة النبوية لابن هشام (٤ / ٣٢٦)، والبداية والنهاية (٤ / ١٩٨).
ورواه أبو داود (٢٩٧١)، والبيهقي في الكبرى (١٢٥٠٦)، وضعفه الألباني في ضعيف أبي داود (٦٣٦).

(٢) أخرجه أبو داود (٢٩٦٧)، والبيهقي في الكبرى (١٣١٤٨)، وحسنه الألباني في صحيح أبي داود (٢٥٧١).

(٣) السهم الغرب: هو الذي لا يعرف من رماه ولا من أين جاء.

(٤) أخرجه البخاري (٤٢٣٤)، ومسلم (١١٥ / ١٨٣)، وأبو داود (٢٧١١)، والنسائي (٣٨٢٧)، وابن حبان (٤٨٥١).

عمرة القضاء

فلما رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة من خيبر أقام بها شهري ربيع وشهري جمادى ورجباً وشعبان ورمضان وشوالاً، وبعث في خلال ذلك السرايا. ثم خرج عليه السلام في ذي القعدة من السنة السابعة من الهجرة قاصداً إلى مكة للعمرة على ما عاقد عليه قريشاً في الحديبية. فلما اتصل ذلك بقريش خرج أكابرهم عن مكة عداوة لله ولرسوله ﷺ، ولم يقدروا على الصبر في رؤيته يطوف بالبيت هو وأصحابه.

فدخل رسول الله ﷺ مكة، وأتم الله عمرته، وقعد بعض المشركين بقعيقعان[١] ينظرون إلى المسلمين وهم يطوفون بالبيت، فأمرهم رسول الله ﷺ بالرمل[٢]، ليرى المشركين أن بهم قوة، وكان المشركون قالوا في المهاجرين: قد وهنتهم حمى يثرب[٣]. وتزوج رسول الله ﷺ في غزوته تلك ميمونة بنت الحارث بن حزْن الهلالية، قيل: تزوجها قبل أن يحرم بعمرة القضاء وقيل: بل تزوجها وهو محرم. وقد أوضحنا ذلك في كتاب التمهيد[٤] وفي كتاب الصحابة[٥] أيضاً عند ذكرها رضي الله عنها. فلما تمت الثلاثة أيام أوجبت عليه قريش أن يخرج عن مكة، ولم يمهلوه أن يبني بها، وبنى بها بسَرِف.

إسلام عمرو بن العاص وخالد بن الوليد وعثمان بن طلحة:

وقيل: أسلم قبل عمرة القضاء وقيل: بعدها عمرو بن العاص وخالد بن الوليد وعثمان بن طلحة.

---

(١) قُعَيْقِعانُ: جبل وقيل: موضع بمكة كانت فيه حرب بين قبيلتين من قريش وهو اسم معرفة سمي بذلك لقَعْقَعَة السِّلاح الذي كان به وقيل: سمي بذلك؛ لأنّ جُرْهُماً كانت تجعل قسيَّها وجعابَها ودَرَقَها فيه فكانت تُقَعْقِعُ وتصوّت قال ابن بري. وسمي بذلك لأنه موضع سلاح تُبَّع. اللسان (٨/ ٢٨٦).

(٢) الرمل: ضرب من الهرولة والمشي السريع.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٦٣٩)، والبخاري (١٦٠٢، ٤٢٥٦)، ومسلم (١٢٦٦ / ٢٤٠)، وأبو داود (١٨٨٦)، والنسائي (٢٩٤٥).

(٤) التمهيد للمصنف (٣ / ١٥٦) وما بعدها.

(٥) الاستيعاب للمصنف (١ / ٤٦).

غزوة مؤتة

فلما انصرف رسول الله ﷺ من عمرة القضاء أقام بالمدينة ذا الحجة والمحرم وصفراً وشهري ربيع، ثم بعث عليه السلام في جمادى الآخرة من السنة الثامنة من الهجرة بعث الأمراء إلى الشام. وأمر على الجيش زيد بن حارثة مولاه، وقال: إن قتل أو أصيب فعلى الناس جعفر بن أبي طالب، فإن قتل فعبد الله بن رواحة. وشيعهم رسول الله ﷺ وودعهم ثم انصرف، ونهضوا.

فلما بلغوا معان[1] من أرض الشام أتاهم الخبر بأن هرقل ملك الروم في ناحية البلقاء وهو في مائة ألف من الروم ومائة ألف أخرى من نصارى العرب أهل البلقاء من لخم وجذام وقبائل قضاعة من بهراء وبلى وبلقين وعليهم رجل من بني إراشة من بلى يقال له: مالك بن رافلة فأقام المسلمون في معان ليلتين وقالوا: نكتب إلى رسول الله ﷺ ونخبره بعدد عدونا فيأمرنا بأمره أو يمدنا. فقال لهم عبد الله بن رواحة: يا قوم إن التي تطلبون قد أدركتموها ـ يعني الشهادة ـ وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة، وما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا، فهي إحدى الحسنيين: إما ظهور، وإما شهادة. فوافقه الجيش كله على هذا الرأي.

ونهضوا حتى إذا كانوا بتخوم البلقاء لقوا الجموع التي ذكرناها كلها مع هرقل إلى جنب قرية يقال لها: مشارف. وصار المسلمون في قرية يقال لها: مؤتة. فجعل المسلمون على ميمنتهم قطبة بن قتادة العذري، وعلى الميسرة عباية بن مالك الأنصاري، وقيل: عبادة ابن مالك، واقتتلوا فقتل الأمير الأول: زيد بن حارثة ملاقياً بصدره الرماح مقبلاً غير مدبر والراية في يده. فأخذها جعفر بن أبي طالب، ونزل عن فرس له يقال لها: شقراء، وقيل: إنه عرقبها وعقرها وقاتل حتى قطعت يمينه، فأخذ الراية بيساره فقطعت، فاحتضن الراية، فقتل كذلك رضي الله عنه، وسنه ثلاث وثلاثون أو أربع وثلاثون سنة. فأخذ الراية عبد الله بن رواحة، وتردد عن النزول بعض التردد، ثم صمم، فقاتل، حتى قتل. فأخذ الراية ثابت بن أقرم أخو بني العجلان، وقال: يا معشر المسلمين اصطلحوا على رجل منكم، قالوا: أنت، قال: لا فدفع الراية إلى خالد بن الوليد وقال: أنت أعلم بالقتال مني. فأخذها خالد بن الوليد، وانحاز بالمسلمين وأنذر رسول الله ﷺ أصحابه بالمدينة يخبرهم بقتل الأمراء

(١) معان بفتح الميم وقيل بضمها: حصن كبير بالأردن.

المذكورين في يوم قتلهم قبل ورود الخبر بأيام.

تسمية من استشهد بمؤتة

زيد بن حارثة، وجعفر بن أبي طالب، وعبد الله بن رواحة، ومسعود بن الأسود بن حارثة من بني عدي بن كعب من الأنصار، ووهب بن سعد بن أبي سرح العامري، وعباد ابن قيس من بني الحارث بن الخزرج بن النعمان من بني مالك بن النجار، وسراقة بن عمرو ابن عطية من بني مازن بن النجار، وأبو كليب، وقيل: أبو كلاب، وأخوه جابر ابنا عمرو ابن زيد من بني مازن بن النجار، وعمرو وعامر ابنا سعد بن الحارث من بني النجار. هؤلاء من ذكر منهم. وكان عدة المسلمين يوم مؤتة ثلاثة آلاف.

opeikandl.com

غزوة فتح مكة

فأقام ﷺ بالمدينة بعد بعث مؤتة جمادى ورجباً، ثم حدث الأمر الذي أوجب نقض عقد قريش المعقود يوم الحديبية، وذلك أن خزاعة كانت في عقد رسول الله ﷺ مؤمنها وكافرها، وكانت بنو بكر بن عبد مناة بن كنانة في عقد قريش، فعدت بنو بكر بن عبد مناة على قوم من خزاعة على ماء لهم بأسفل مكة، وكان سبب ذلك أن رجلاً يقال له: مالك ابن عباد الحضرمي حليفاً لآل الأسود بن رزن خرج تاجراً، فلما توسط أرض خزاعة عدوا عليه فقتلوه وأخذوا ماله، وذلك قبل الإسلام بمدة. فعدت بنو بكر بن عبد مناة رهط الأسود بن رزن على رجل من خزاعة فقتلوه بمالك بن عباد. فعدت خزاعة على سلمى وكلثوم وذؤيب بني الأسود بن رزن فقتلوهم. وهؤلاء الإخوة أشراف بني كنانة كانوا يودون في الجاهلية ديتين ديتين، ويودي سائرهم ديةً ديةً، وذلك كله قبل الإسلام فلما جاء الإسلام حجز ما بين من ذكرنا لشغل الناس به.

فلما كانت الهدنة المنعقدة يوم الحديبية أمن الناس بعضهم بعضاً، فاغتنم بنو الدِّيل من بني بكر بن عبد مناة تلك الفرصة وغفلة خزاعة وأرادوا إدراك ثأر بني الأسود بن رزن، فخرج نوفل بن معاوية الديلي بمن أطاعه من بني بكر بن عبد مناة حتى بيت خزاعة، ونال منهم فاقتتلوا. وأعانت قريش بني بكر بالسلاح، وقوم من قريش أعانوهم بأنفسهم مستخفين. فانهزمت خزاعة إلى الحرم. فقال قوم نوفل بن معاوية لنوفل: يا نوفل اتق إلهك ولا تستحل الحرم ودع خزاعة، فقال: لا إله لي اليوم، والله يا بني كنانة إنكم لتسرقون في الحرم، أفلا تدركون فيه ثأركم، فقتلوا رجلاً من خزاعة يقال له: منبه ودخلت خزاعة دور مكة في دار بديل بن ورقاء الخزاعي ودار مولى لهم يسمى رافعاً. وكان ذلك نقضاً للصلح الواقع يوم الحديبية.

فخرج عمرو بن سالم الخزاعي وبديل بن ورقاء الخزاعي وقوم من خزاعة، فقدموا على رسول الله ﷺ مستغيثين به مما أصابهم به بنو بكر بن عبد مناة وقريش وأنشده عمرو ابن سالم الشعر الذي ذكرته في بابه من كتاب الصحابة[1]، فأجابهم رسول الله ﷺ إلى نصرهم، وقال: «**لا ينصرني الله إن لم أنصر بني كعب**»[2]. ثم نظر إلى سحابة، فقال:

---

(١) الاستيعاب للمصنف (٣ / ١١٧٥).

(٢) رواه ابن هشام في السيرة (٥ / ٤٨)، وأبو يعلى في مسنده (٧ / ٣٤٣)، وقال الهيثمي في المجمع

«**إنها لتستهل بنصرتي كعباً**» يعني خزاعة. وقال رسول الله ﷺ لبديل بن ورقاء ومن معه: «**إن أبا سفيان سيأتي ليشد العقد ويزيد في مدة الصلح، وسينصرف بغير حاجة**».

وندمت قريش على ما فعلت، فخرج أبو سفيان إلى المدينة ليشد العقد ويزيد في المدة، فلقي بديل بن ورقاء بعسفان فكتمه بديل مسيره إلى النبي ﷺ، وأخبره أنه إنما سار بخزاعة على الساحل. فنهض أبو سفيان حتى أتى المدينة، فدخل على ابنته: أم حبيبة أم المؤمنين رضي الله عنها، فذهب ليقعد على فراش رسول الله ﷺ فطوته عنه فقال: يا بنية ما أدري أرغبت بي عن هذا الفراش أم رغبت به عني ؟ قالت: بل هو فراش رسول الله ﷺ وأنت رجل مشرك نجس فلم أحب أن تجلس عليه، فقال لها: يا بنية لقد أصابك بعدي شر. ثم أتى النبي عليه السلام في المسجد، فكلمه، فلم يجبه بكلمة. ثم ذهب أبو سفيان إلى أبي بكر، فكلمه في أن يكلم رسول الله ﷺ فيما أتى له فأبى عليه أبو بكر من ذلك فلقي عمر فكلمه في ذلك، فقال له عمر: أنا أفعل هذا ؟ والله لو لم أجد إلا الذر لجاهدتكم به. فدخل على علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فوجده وفاطمة بنت رسول الله ﷺ والحسن وهو صبي فكلمه فيما أتى له، فقال له علي: والله ما أستطيع أن أكلم رسول الله ﷺ في أمر قد عزم عليه. فالتفت أبو سفيان إلى فاطمة فقال: يا بنت محمد هل لك أن تأمري بنيك هذا فيجير على الناس، فقالت له: ما بلغ بنيي ذلك، وما يجير أحد على رسول الله ﷺ

فقال له علي: يا أبا سفيان أنت سيد بني كنانة، فقم، فأجر على الناس والحق بأرضك، وهزئ به، فقال له: يا أبا الحسن أترى ذلك نافعي ومغنياً عني شيئاً ؟ قال: ما أظن ذلك، ولكن لا أجد لك سواه. فقام أبو سفيان في المسجد فقال: يا أيها الناس إني قد أجرت على الناس. ثم ركب وانطلق راجعاً إلى مكة. فلما قدمها أخبر قريشاً بما لقي وبما فعل، فقالوا له: ما جئت بشيء، وما زاد علي بن أبي طالب على أن لعب بك.

ثم أعلن رسول الله ﷺ المسير إلى مكة، وأمر الناس بالجهاز لذلك، ودعا الله تعالى في أن يأخذ عن قريش الأخبار ويستر عنهم خروجه، فكتب حاطب بن أبي بلتعة إلى قريش كتاباً يخبرهم فيه بقصد رسول الله ﷺ إليهم. فنزل جبريل من عند الله تعالى على رسول الله ﷺ بما صنع حاطب بن أبي بلتعة. فدعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب والزبير بن العوام والمقداد بن عمرو، فقال لهم: «**انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ، فإن بها**

= (٦ / ٢٣٧): رواه أبو يعلى عن حزام بن هشام بن حبيش عن أبيه عنها، وقد وثقهما ابن حبان وبقية رجاله رجال الصحيح.

ظعينة [١] **معها كتاب إلى قريش**». فانطلقوا فلما أتوا روضة خاخ وجدوا المرأة، فأناخوا بها وفتشوا رحلها كله، فلم يجدوا شيئاً، فقالوا: والله ما كذب رسول الله ﷺ، فقال لها علي: والله لتخرجن الكتاب أو لنلقين الثياب، فحلت قرون رأسها، فأخرجت الكتاب منها. فأتوا به النبي ﷺ، فإذا هو كتاب من حاطب بن أبي بلتعة إلى أهل مكة. فقال رسول الله ﷺ: «**ما هذا يا حاطب ؟**» فقال حاطب: والله يا رسول الله ما شككت في الإسلام ولا رجعت عن ديني، ولكني كنت ملصقاً في قريش فأردت أن أتخذ عندهم بذلك يداً يحفظونني بها في شأفتي [٢] بمكة لأن أهلي وولدي بها. فقال عمر بن الخطاب: يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال رسول الله ﷺ: «**وما يدريك يا عمر لعل الله قد اطلع على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم**» [٣].

وخرج رسول الله ﷺ في عشرة آلاف واستخلف على المدينة أبا رُهم كلثوم بن حصين الغفاري، وكان خروجه لعشر خلت من رمضان، فصام عليه السلام حتى بلغ الكديد [٤] بين عسفان وأُمَج، ثم أفطر ﷺ بعد صلاة العصر، وشرب على راحلته علانية ليراه الناس، وقال: «**تقووا لعدوكم**»، وأمر الناس بالفطر، فأفطر بعضهم وصام بعضهم، فلم يعب على الصائم ولا على المفطر.

فلما نزل رسول الله ﷺ مر الظهران ومعه من بني سليم ألف رجل ومن بني مزينة ألف رجل وثلاثة رجال، وقيل: من بني سليم سبعمائة، ومن بني غفار أربعمائة، ومن أسلم أربعمائة، وطوائف من قيس وأسد وتميم وغيرهم من سائر العرب، وقد أخفى الله عز وجل خبره عن قريش إلا أنهم على وجل وارتقاب خرج أبو سفيان وبديل بن ورقاء وحكيم بن حزام يتجسسون الأخبار. وقد كان العباس بن عبد المطلب هاجر مسلماً في تلك الأيام، فلقي رسول الله ﷺ بذي الحليفة، فبعث ثقله [٥] إلى المدينة، وانصرف مع رسول الله ﷺ غازياً، فالعباس من المهاجرين قبل الفتح وقيل: بل لقيه بالجحفة مهاجراً. وذكر أيضاً أن أبا سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة أخا أم سلمة

---

(١) الظعينة: المرأة في الهودج.

(٢) شأفتي: الشأفة الأهل والمال.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٤٨١٦)، والبخاري (٣٠٠٧)، ومسلم (٢٤٩٤ / ١٦١)، وأبو داود (٢٦٥٠)، والترمذي (٣٣٠٥).

(٤) الكَديد: موضع على اثنتين وأربعين ميلا من مكة.

(٥) ثقله: أهله ومتاعه.

خرجا أيضاً مهاجرين ولقيا رسول الله ﷺ في بعض الطريق قرب مكة، فأعرض عنهما. فلما نزل استأذنا عليه، فلم يأذن لهما، فكلمته أم سلمة فيهما وقالت: لا يكون ابن عمك وأخي أشقى الناس بك، فقد جاءا مسلمين، فأذن لهما رسول الله ﷺ وأسلما وحسن إسلامهما.

فلما نزل رسول الله ﷺ بالجيوش مر الظهران رقت نفس العباس لقريش وأسف على ذهابها وخاف أن تغشاهم الجيوش قبل أن يستأمنوا. فركب بغلة النبي ﷺ ونهض، فلما أتى الأراك(١) وهو يطمع أن يلقى حطاباً أو صاحب لبن يأتي مكة فينذرهم. فبينما هو يمشي إذ سمع صوت أبي سفيان صخر بن حرب وبديل بن ورقاء وهما يتساءلان وقد رأيا نيران عسكر النبي عليه السلام. وبديل يريد أن يستر ذلك فيقول: إنما هي نيران خزاعة، ويقول له أبو سفيان: خزاعة أقل وأذل من أن تكون لها هذه النيران. فلما سمع العباس كلامه ناداه: يا أبا حنظلة فميز أبا سفيان كلامه، فناداه: يا أبا الفضل، فقال: نعم، فقال له: فداك أبي وأمي، فقال له العباس: ويحك يا أبا سفيان هذا رسول الله ﷺ في الناس، واصباح قريش، فقال أبو سفيان: فما الحيلة ؟ فقال له العباس: هذا والله لئن ظفر بك ليقتلنك، فارتدف خلفي وانهض معي إلى رسول الله ﷺ. فأردفه العباس ولقي به العسكر، فلما رأى الناس العباس على بغلة رسول الله ﷺ أمسكوا. ومر على نار عمر ونظر عمر إلى أبي سفيان فميزه، فقال: أبو سفيان عدو الله، الحمد لله الذي أمكن منك بغير عقد ولا عهد. ثم خرج يشتد إلى رسول الله ﷺ، وسابقه العباس فسبقه العباس على البغلة وكان عمر بطيئاً في الجري. فدخل العباس ودخل عمر على أثره. فقال: يا رسول الله هذا عدو الله أبو سفيان قد أمكن الله منه بلا عقد ولا عهد، فأذن لي أضرب عنقه. فقال له العباس: مهلاً يا عمر، فوالله لو كان من بني عدي بن كعب ما قلت هذا ولكنه من بني عبد مناف. فقال عمر: مهلاً، فوالله لإسلامك يوم أسلمت كان أحب إلي من إسلام الخطاب لو أسلم، وما بي إلا أني قد عرفت أن إسلامك كان أحب إلى رسول الله ﷺ من إسلام الخطاب لو أسلم فأمر رسول الله ﷺ العباس أن يحمله إلى رحله ويأتيه به صباحاً. ففعل العباس ذلك، فلما أصبح أتى به النبي عليه السلام، فقال له رسول الله ﷺ: **«ألم يأن لك بأن تعلم أن لا إله إلا الله؟»** فقال أبو سفيان: بأبي أنت وأمي ما أحلمك وما أكرمك وأوصلك، والله لقد ظننت أنه لو كان مع الله إله غيره لقد أغناني، قال: **«ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله ؟»** قال: بأبي أنت وأمي ما

(١) الأراك: واد قرب مكة.

أحلمك وأكرمك وأوصلك أما هذه فإن في النفس منها شيئاً حتى الآن. فقال له العباس: أسلم قبل أن تضرب عنقك، فأسلم، فقال العباس: يا رسول الله إن أبا سفيان يحب الفخر، فاجعل له شيئاً، فقال رسول الله ﷺ لعمه: «**من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن**»(١).

فكان هذا منه أماناً لكل من لم يقاتل من أهل مكة، ولهذا قال جماعة من أهل العلم منهم الشافعي رحمه الله: إن مكة مؤمنة وليست عنوةً، والأمان كالصلح، وروى أن أهلها مالكون رباعهم، ولذلك كان يجيز كراها لأربابها وبيعها وشراءها؛ لأن من أمن فقد حرم ماله ودمه وذريته وعياله. فمكة مؤمنة عند من قال بهذا القول إلا الذين استثناهم رسول الله ﷺ وأمر بقتلهم وإن وجدوا متعلقين بأستار الكعبة. وأكثر أهل العلم يرون فتح مكة عنوةً؛ لأنها أخذت غلبةً بالخيل والركاب إلا أنها مخصوصة بأن لم يجر فيها قسم غنيمة ولا سبى من أهلها أحد. وخصت بذلك لما عظم الله من حرمتها ألا ترى إلى قوله ﷺ: «**مكة حرام محرمة لم تحل لأحد قبلي ولا تحل لأحد بعدي وإنما أحلت لي ساعة من نهار ثم هي حرام إلى يوم القيامة**»(٢)، والأصح والله أعلم أنها بلدة مؤمنة، أمن أهلها على أنفسهم وأمنت أموالهم تبعاً لهم، ولا خلاف في أنه لم يكن فيها غنيمة.

ثم أمر رسول الله ﷺ العباس أن يوقف أبا سفيان بخطم الوادي ليرى جيوش الله تعالى، ففعل ذلك العباس، وعرض عليه القبائل قبيلة قبيلة، يقول: هؤلاء سليم، هؤلاء غفار، هؤلاء تميم، هؤلاء مزينة، إلى أن جاء موكب النبي ﷺ في المهاجرين والأنصار خاصة، كلهم في الدروع والبيض، فقال أبو سفيان: من هؤلاء ؟ فقال: هذا رسول الله ﷺ في المهاجرين والأنصار، فقال أبو سفيان: والله ما لأحد بهؤلاء قبل، والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيماً، فقال العباس: يا أبا سفيان! إنها النبوة، قال: فنعم إذن. ثم قال له العباس: يا أبا سفيان النجاء(٣) إلى قومك. فأسرع أبو سفيان، فلما أتى مكة عرفهم بما أحاط بهم، وأخبرهم بتأمين رسول الله ﷺ كل من دخل داره أو المسجد أو دار أبي سفيان.

وتأبش(٤) قوم ليقاتلوا، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فرتب الجيوش، وجعل الراية بيد

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٧٩٠٩)، ومسلم (١٧٨٠ / ٨٤)، وابن حبان (٤٧٦٠) عن أبي هريرة.
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٢٧٩)، والبخاري (٢٤٣٤)، ومسلم(١٣٥٥ / ٤٤٧)، والنسائي (٢٨٩٢).
(٣) النجاء: السرعة.
(٤) تأبش: تجمع.

سعد بن عبادة، وكان من قول سعد بن عبادة: اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الحرمة. فقال العباس: يا رسول الله هلكت قريش، لا قريش بعد اليوم، إن سعد بن عبادة قال كذا وكذا وإنه حنق على قريش، ولا بد أن يستأصلهم. فأمر رسول الله ﷺ أن تنزع الراية من سعد بن عبادة وتدفع إلى علي، وقيل: بل إلى الزبير، وقيل: بل دفعها إلى ابنه قيس بن سعد لئلا يجد سعد في نفسه شيئاً. وكان الزبير على الميمنة وخالد بن الوليد على الميسرة، وقد قيل: إن الزبير كان على الميسرة وخالد بن الوليد على الميمنة وفيها أسلم وغفار ومزينة وجهينة. وكان أبو عبيدة بن الجراح على مقدمة موكب النبي ﷺ. وسرب [١] رسول الله ﷺ الجيوش من ذي طوى، وأمر الزبير بالدخول من كداء في أعلى مكة، وأمر خالد بن الوليد ليدخل من الليط أسفل مكة. وأمرهم رسول الله ﷺ بقتال من قاتلهم. ولهذا كله يقول أكثر العلماء: إنها افتتحت عنوةً وأنها مخصوصة دون سائر البلدان لما خصت به دون غيرها.

وكان عكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية وسهيل بن عمر قد جمعوا جمعاً بالخندمة [٢] ليقاتلوا، فناوشهم أصحاب خالد القتال، فأصيب من المسلمين رجلان وهما: كرز بن جابر من بني محارب بن فهر بن مالك، وخنيس بن خالد بن ربيعة بن أصرم الخزاعي حليف بني منقذ خرجا عن جيش خالد فقتلا، رحمة الله عليهما، وقتل أيضاً من المسلمين سلمة ابن الميلاء الجهني. وقتل من المشركين ثلاثة عشر رجلاً، ثم انهزموا. وهذه سبيل العنوة في غير مكة. وكان شعار المهاجرين يوم الفتح وحنين والطائف: يا بني عبد الرحمن، وشعار الخزرج: يا بني عبد الله، وشعار الأوس: يا بني عبيد الله.

وكان الذين استثناهم رسول الله ﷺ حين أمن الناس عبد العزى بن خطل وهو من بني الأدرم بن غالب، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح، وعكرمة بن أبي جهل، والحويرث ابن نقيذ بن وهب بن عبد بن قصي، ومقيس بن صبابة، وقينتي ابن خطل: فَرْتَنَي وصاحبتها كانتا تغنيان ابن خطل بهجو رسول الله ﷺ، وسارة مولاة لبعض بني عبد المطلب.

أما ابن خطل فإنه كان أسلم وبعثه النبي ﷺ مصدقاً، وبعث معه رجلاً من المسلمين فعدا عليه، فقتله وارتد ولحق بالمشركين بمكة، فوجد يوم الفتح متعلقاً بأستار الكعبة، فقتله سعيد بن حريث المخزومي وأبو برزة الأسلمي.

(١) سرب: فرق.

(٢) الخندمة: جبل بمكة.

وأما عبد الله بن سعد بن أبي سرح فكان يكتب لرسول الله ﷺ ، ثم لحق بمكة مرتداً، فلما كان يوم الفتح اختفى. ثم أتى به عثمان بن عفان النبي ﷺ وكان أخاه من الرضاعة، فاستأمن له رسول الله ﷺ . فسكت عنه ﷺ ساعة ثم أمنه وبايعه. فلما خرج قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «**هلا قام بعضكم فضرب عنقه ؟**» فقال رجل من الأنصار: هلا أومأت إلي ؟ فقال عليه السلام: «**ما كان لنبي أن يكون له خائنة الأعين**»(١). ثم عاش عبد الله بن سعد حتى استعمله عمر، ثم ولاه عثمان مصر. وهو الذي غزا إفريقية وافتتحها أول مرة. وحسن إسلامه، ولم يظهر منه بعد في دينه شيء يكره.

وأما عكرمة بن أبي جهل ففر إلى اليمن، فاتبعته امرأته أم حكيم بنت الحارث بن هشام فردته، فأسلم وحسن إسلامه، وكان من فضلاء الصحابة.

وأما الحويرث بن نقيذ فكان يؤذي رسول الله ﷺ بمكة، فقتله علي بن أبي طالب يوم الفتح.

واما مقيس بن صبابة فكان قد أتى النبي عليه السلام قبل ذلك مسلماً ثم عدا على رجل من الأنصار فقتله بعد أن أخذ الدية منه في قتيل له، ثم لحق بمكة مرتداً. فقتله يوم الفتح نميلة بن عبد الله الليثي وهو ابن عمه. وفي سننه ﷺ أنه قال: «**لا أعفي أحداً قتل بعد أخذ الدية**»(٢). هذا من المسلمين، وأما مقيس بن صبابة فارتد وقتل بعد أخذ الدية.

وأما قينتا ابن خطل فقتلت إحداهما واستؤمن رسول الله ﷺ للأخرى، فأمنها، فعاشت مدة ثم ماتت في حياة النبي عليه السلام.

وأما سارة فاستؤمن لها أيضاً، وأمنها عليه السلام، وعاشت إلى أن أوطأها رجل فرسا بالأبطح في زمان عمر فماتت.

واستتر رجلان من بني مخزوم عند أم هانئ بنت أبي طالب فأجارتهما وأمنتهما، فأمضى رسول الله ﷺ أمانها، وقال: «**قد أجرنا من أجرت يا أم هانئ وأمنا من أمنت**»(٣)، وكان علي أراد قتلهما، قيل: إنهما الحارث بن هشام وزهير بن أبي أمية أخو أم

(١) أخرجه أبو داود (٢٦٨٣)، والحاكم (٤٧١٣)، والبزار (١١٥١).
وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي. وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٤٢٦)، وصحيح أبي داود (٢٣٣٤)، والسلسلة الصحيحة (١٧٢٣).
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٤٩٥٤)، وأبو داود (٤٥٠٧)، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٦١٧٣)، ومشكاة المصابيح (٣٤٧٩).
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٦٩٥٢)، والبخاري (٣٥٧)، ومسلم (٣٣٦ / ٨٢).

سلمة، وأسلما وكانا من خيار المسلمين، وقيل: إن أحدهما جعدة بن هبيرة، والأول أصح.

وطاف رسول الله ﷺ بالكعبة، ودعا عثمان بن طلحة فأخذ منه مفتاح الكعبة بعد أن مانعته أمه ذلك ثم أسلمته. فدخل النبي الكعبة ومعه أسامة بن زيد، وبلال بن رباح، وعثمان بن طلحة، ولا أحد معه غيرهم. فأغلق الباب عليه. وصلى داخلها ركعتين. ثم خرج وخرجوا، ورد المفتاح إلى عثمان بن طلحة، وأبقى له حجابة البيت وقال: «**خذوها خالدة تالدة إلى يوم القيامة**»، فهي إلى الآن في ولد شيبة بن عثمان بن طلحة.

وأمر عليه السلام بكسر الصور التي داخل الكعبة وحولها وكسر الأصنام التي حول الكعبة وبمكة كلها، وكانت الأصنام التي في الكعبة مشدودة بالرصاص وكان يشير إليها بقضيب في يده، فكلما أشار إلى واحد منها خر لوجهه، وكان يقول: «**جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا**». وأذن له بلال على ظهر الكعبة.

وخطب رسول الله ﷺ ثاني يوم الفتح خطبة مشهورة عند أهل الأثر والعلم بالخبر، فوضع مآثر الجاهلية حاشا سدانة البيت وسقاية الحاج، وأخبر ﷺ أن مكة لم يحل فيها القتال لأحد قبله، ولا يحل لأحد بعده، وإنما حل له القتال في ساعة من نهار، ثم عادت كحرمتها بالأمس، لا يسفك فيها دم. ومن أحسن ما روى من خطبته مختصراً ما رواه يحيى بن سعيد الأموي وغيره، عن محمد بن إسحاق، عن يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه[١]:

أمر نبي الله ﷺ ربيعة بن أمية بن خلف، فوقف تحت صدر راحلة النبي ﷺ، وكان رجلاً صيتاً[٢]، فقال: «**يا ربيعة قل: يا أيها الناس إن نبي الله يقول لكم: أتدرون أي بلد هذا ؟ وأي شهر هذا ؟**» «**وأي يوم هذا**»؟ فنادى بذلك، فقال الناس: نعم هذا البلد الحرام والشهر الحرام، فقال: «**إن الله حرم عليكم دماءكم وأموالكم كحرمة بلدكم هذا وكحرمة شهركم هذا وكحرمة يومكم هذا، ثم قال: اللهم اشهد، أيها الناس إنما النسيء زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدة ما حرم الله ألا وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله**[٣] **منها أربعة حرم: الثلاثة متوالية، ورجب مفرد الذي بين**

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٦ / ١٠، ١١) (٢) صيتا: بعيد الصوت.

(٣) النسيء: التأجيل ويراد به تأجيل بعض الأشهر الحرم وهي المذكورة فيما بعد، وكانوا ربما أخروها =

جمادى وشعبان. ألا هل بلغت ؟ فيقول الناس: نعم. قال: «**اللهم اشهد**».

وتوقعت الأنصار أن يبقى النبي عليه السلام بمكة، فأخبرهم أن المحيا محياهم وأن الممات مماتهم. ومر عليه السلام بفضالة بن عمير بن الملوح الليثي، وهو عازم على الفتك برسول الله ﷺ، فقال له: «**ما تحدث به نفسك ؟**» قال: لا شيء كنت أذكر الله عز وجل، فضحك النبي عليه السلام، وقال: «**أستغفر الله لك**»(١)، ووضع يده عليه السلام على صدر فضالة، فكان فضالة يقول: والله ما رفع يده عن صدري حتى ما أجد على ظهر الأرض أحب إلي منه.

وهرب صفوان بن أمية إلى اليمن، فاتبعه عمير بن وهب الجمحي بتأمين رسول الله ﷺ إياه فرجع فأكرمه رسول الله ﷺ، وقال له: «**انزل يا أبا وهب**»، فقال: إن هذا يخبرني عنك أنك تمهلني شهرين، قال: «**بل لك أربعة أشهر**». وهرب ابن الزبعري الشاعر إلى نجران ثم رجع، فأسلم. وهرب هبيرة بن أبي وهب المخزومي زوج أم هانئ بنت أبي طالب إلى اليمن، فمات هناك كافراً.

ثم بعث رسول الله ﷺ السرايا حول مكة يدعو إلى الإسلام، ولم يأمرهم بقتال. وكان أحد أمراء تلك السرايا: خالد بن الوليد خرج إلى بني جذيمة بن عامر بن عبد مناة بن كنانة، فقتل منهم وسبا، وقد كانوا أسلموا ولم يقبل خالد قولهم وإقرارهم بالإسلام، فوداهم رسول الله ﷺ، بعث علي بن أبي طالب رضي الله عنه بمال إليهم، فودى لهم جميع قتلاهم ورد إليهم ما أخذ منهم وقال لهم علي: انظروا إن فقدتم عقالاً لأدينه، فبهذا أمرني رسول الله ﷺ. ورفع رسول الله ﷺ يديه فقال: «**اللهم إني أبرأ إليك من صنع خالد**»(٢).

ثم بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد إلى العزى وكان بيتاً بنخلة تعظمه قريش وكنانة وجميع مضر، وكان سدنته بنو شيبان من بني سليم حلفاء بني هاشم، فهدمه. وكان فتح مكة لعشر بقين من رمضان سنة ثمان من الهجرة.

= جملة أو أخروا بعضها وخاصة شهر المحرم، إذ كان كثيرون يحلونه عاما ويحرمونه عاما، ويقال: إن كنانة هي التي كانت تصنع ذلك.

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٥ / ٨٠)، والبداية والنهاية (٤ / ٣٠٨).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٦٣٨٢)، والبخاري (٤٣٣٩)، والنسائي (٥٤٠٥)، وابن حبان (٤٧٤٩).